بسم الله الرحمن الرحيم

رأي في نشأة المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين

أ.د. عامر سليمان (*)

إن الرأي السائد بين الباحثين المتخصصين بالتاريخ القديم بعامة إن معتقدات القوم الدينية في بلاد الرافدين إنما نشأت على أساس من الشرك، بمعنى تعدد الآلهة، وان التوحيد لم يعرف لديها إلا في وقت متأخر نسبياً، الألف الثاني قبل الميلاد أو بعد ذلك على الرغم من ان بلاد الرافدين كانت قد شهدت مولد إحدى اعرق الحضارات الأصيلة.

يتعرض البحث إلى هذا الرأي من خلال تقييم المصادر المعتمدة في استنتاجه ويخلص إلي القول بان معتقدات الأقوام العراقية القديمة قامت على التوحيد الفطري، ومن ثم كان الابتعاد عن التوحيد إلى الشرك تدريجياً حتى غدا الشرك من ابرز المعتقدات الدينية القديمة في الألف الثاني قبل الميلاد.

يجمع الباحثون في التاريخ القديم، أو يكادون، على ان معتقدات الأقوام القديمة التي استقرت في منطقة الشرق الأدنى القديم، ومنه الأقوام التي استقرت

(*)عضو المجمع العلمي وأستاذ في قسم الآثار/ كلية الآداب / جامعة الموصل.

في بلاد الرافدين، المنطقة التي شهدت مولد إحدى اعرق الحضارات البشرية الأصيلة، إنما نشأت على أساس من الشرك بمعنى تعدد الآلهة، منذ اقدم العصور التي يمكن تلمّس وجود نوع من المعتقدات الدينية فيها، أي منذ العصور الحجرية القديمة، ناكرين لتلك الأقوام معرفتها بالتوحيد على الرغم من ان الله سبحانه وتعالى نص في محكم كتابه انه خلق الإنسان وهو عارف بالتوحيد وبربوبية الله[1]. وظلّ الشرك من ابرز معتقدات القوم الدينية حتى فترة متأخرة نسبياً. أما التوحيد الخالص بمعنى الإيمان بوجود اله واحد خالق كل شيء فهو من الأفكار والمعتقدات التي ظهرت، كما يرى أولئك الباحثون، في وقت لاحق. ففي وادي النيل وبلاد الشام كانت أولى دعوات التوحيد في الألف الثاني قبل الميلاد[2]، أما في بلاد الرافدين فلم تظهر فيها أية دعوة توحيدية أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر في معتقدات السكان القدماء سواء في عصور ما قبل التاريخ أو العصور التاريخية[3]. وقد وضع الباحثون صورة مشوشة عن نشأة المعتقدات الدينية عند الإنسان تعتمد على الظن والتخمين في غالب الأحيان وتختلف باختلاف الباحثين وتباين تفسيراتهم للآثار المكتشفة، وهو أمر طبيعي طالما اعتمدت تلك الصورة في رسمها على ما يمكن ان يستنتج من الآثار المادية المكتشفة التي لا تقدم أدلة قاطعة أو أجوبة شافية لكثير من التساؤلات حول أولى معتقدات الإنسان الدينية،

---

(١) سورة الأعراف/١٧١.

(٢) انظر، مثلاً، طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط٢،ج٢ بغداد ١٩٥٥، ص٨٧ إذ يذكر إن من "أهم سمات الديانة في وادي النيل هو الشرك وان الديانة في وادي النيل لم تتطور إلى فكرة التوحيد، اللهم إلا في عهد الفرعون الشاذ ((إخناتون)) الذي يمكن عد فكرته فكرة " جهيضة " إذ أنها ماتت بموت صاحبها وعادت إلى مصر وثنيتها السابقة ...".

(٣) " لم يصل البابليون في كل ما نعرفه من أطوار تاريخهم إلى طور التوحيد، و انما، كما ذكرنا قد يفردون بعض الآلهة ويفضلونها على الآلهة الأخرى". نفس المصدر، ج١، ص٢٢٧.

وهذا ما أكده أستاذنا المرحوم طه باقر الذي قال ان من معرفتنا: " بالنظم الدينية والمعتقدات التي نشأت في العراق القديم لا تتعدى العصور التاريخية التي نجد فيها منذ اقدم عهودها نظاماً دينياً ناضجاً، أما بداية هذا النظام وأطواره البدائية التي مرّ بها قبل ان يتطور فيصبح في الحال التي نعرفه فيها في العصور التاريخية، فلا سبيل لمعرفتها معرفة تاريخية أكيدة".(٤)

ومع إننا لا نتفق وما ذهب إليه أستاذنا الفاضل في وصف النظام الديني في بداية العصور التاريخية بأنه كان نظاماً دينياً ناضجاً" إذ انه كان نظاماً اتسم بالشرك والتشبيه ولا يمكن عدّه نظاماً ناضجاً كما إننا لسنا مع وصف بدايات المعتقدات الدينية عند الإنسان بأنها كانت بدائية، إلا أننا نؤكد ان معرفتنا بالمعتقدات الدينية في العصور المبكرة قليلة جداً ولا يمكن الركون إليها والوثوق بها إذ أنها اعتمدت بالدرجة الأساس على آثار مادية صماء قليلة لا تتعدى ما وجد في القبور من أثاث جنائزية وما يمكن استنتاجه من أساليب الدفن ومن عدد من الدمى الطينية والرسوم والنقوش التي قد تفسّر بان لها علاقة بالمعتقدات الدينية، وكلما ابتعدنا بالزمن في عمق عصور ما قبل التاريخ كلما قلت الآثار المادية المكتشفة وقلت معها معلوماتنا عن معتقدات الإنسان حتى يصبح من الصعب إعطاء تصوّر مقبول لمعتقدات إنسان العصر الحجري القديم الأول بل ان أقصى ما يمكن استنتاجه من آثار إنسان ذلك العصر ومخلفاته انه كان لديه اعتقادات دينية معينة ولاسيما فيما له علاقة بالموت وما بعد الموت.

وكانت الصورة التي وضعها الباحثون لإنسان العصر الحجري الحديث،

---

(٤) نفس المصدر، ص٢٢٤.

عصر الزراعة وتدجين الحيوان، اكثر تفصيلاً. فبعد أن استقر الإنسان إلى جوار أرضه الزراعية وعاش في بيوت صغيرة بناها بعضها جوار بعضها الآخر ونشأت أولى القرى الزراعية والمجتمعات الصغيرة، ولا سيما في القسم الشمالي من بلاد الرافدين، تبلورت لدى الإنسان، كما يرى الباحثون، معتقدات دينية معينة ترتبط بحياة الاستقرار الجديدة وتدور أساسا حول القوى والظواهر المؤثرة في خصوبة الأرض والحيوان. وهكذا جُسّدت تلك القوى والظواهر " على هيئة آلهة عامة تمثل الأرض والخصب والقوى المولدة في الطبيعة، ثم اخذ البشر يرون في قوى الطبيعة الأخرى كوائن علوية جسّموها بهيئة آلهة، وقد كان هذا هو الحال في الديانة في حضارة وادي الرافدين حيث انتخب القوم أهم الظواهر الطبيعية التي كان لها اثر قوي في كونهم وحياتهم وجسّموها بعدئذ، أي شخّصوها على هيئة آلهة"(٥) وتبعاً لذلك، فسّرت دمى الطين المكتشفة، والتي تمثل امرأة عارية حبلى مبالغ في معالم أنوثتها، على أنها تجسّدُ فكرة الخصوبة والتكاثر وتعبّر عن أفكار سحرية خاصة، بالخصوبة(٦) وعرفت فيما بعد بالآلهة ألام، رمز الخصوبة. كما فسّرت الدمى والنقوش والأشكال الطينية التي صنعت على هيئة رأس ثور، أو ظلف ثور أو على هيئة تشبه عضو الذكر، على انها

---

(٥) رشيد، فوزي، المعتقدات الدينية في: حضارة العراق، ج١، بغداد،١٩٨٥: " ومن خلال الآثار التي خلفتها لنا هذه الحضارات الزراعية القديمة تأكد لنا بان سكانها عبدوا الخصوبة وكل شيء يساعد على وفرة الإنتاج في الحياة وقد رمزوا لهذه العبادة بالدمى المصورة للآلهة ألام" ص١٤٦. كذلك، الاحمد، سامي سعيد، في: العراق في موكب الحضارة، بغداد،١٩٨٨، ج١، ص١٤١.

(٦) الدباغ، تقي، الفكر الديني القديم، بغداد، ١٩٩٢، ص٩ و ص١٤-١٥.

رمز للعنصر المذكر في الطبيعة ونظير الآلهة ألام[٧]. أما الأواني والحلي والمواد الأخرى التي وجدت في القبور، فقد أخذت على أنها تشير إلى نوع من الاعتقاد بحياة ما بعد الموت أو إنها، في اقل تقدير، دليل على ان الإنسان لم ينظر إلى الموت انه نهاية الحياة المطلقة[٨]. وقد أفاد الباحثون من الآثار المادية الأخرى المكتشفة، مثل أسس وجدران المعابد ودكاك القرابين والمشاهد الدينية المنحوتة أو المنقوشة على الأختام والأحجار، في التعرف على جوانب من الطقوس والشعائر الدينية التي مارسها الإنسان. ومع ذلك تبقى معرفتنا بالمعتقدات الدينية عند الإنسان في عصور ما قبل التاريخ ناقصة وغير دقيقة وقد تختلف اختلافا بينا عن واقع ما كانت عليه المعتقدات الدينية.

وتزداد المعلومات عن المعتقدات الدينية في العصور التاريخية بعد ان تم ابتكار الكتابة وشاع استخدامها لتدوين القصص والأساطير الدينية وغيرها من المآثر الدينية وذلك منذ أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، فأضيف بذلك مصدر جديد ومهم إلى مصادر معلوماتنا عن المعتقدات الدينية وان كانت النصوص المسمارية ذات العلاقة قد دونت في فترة متأخرة عن تأريخ نشأة تلك المعتقدات وتبلورها[٩]. كما ازدادت في العصور التاريخية الآثار المادية المكتشفة التي قد

(٧) علي، فاضل عبد الواحد، عشتار ومأساة تموز، بغداد، ط٢، ١٩٨٦، ص٢٣.

(٨) الدباغ، المصدر السابق، ص٢٤٤ وكذلك حنون، نائل، عقائد ما بعد الموت، بغداد، ١٩٧٧، ط٢، ١٩٨٦، ص٢٤٥ وما بعدها.

(٩) كريمر، صموئيل نوح، الأساطير السومرية، فيلادلفيا، ١٩٤٤، ترجمة يوسف داؤد، بغداد، ١٩٧١، ص٢٥ وما بعدها.

تلقي ضوءاً على جوانب معينة من المعتقدات الدينية ولا سيما ما له علاقة بالطقوس الدينية.

ومع وفرة المعلومات المستقاة من النصوص المسمارية والآثار المادية الأخرى، تبقى الصورة التي يمكن رسمها للمعتقدات الدينية في العصور التاريخية ناقصة هي الأخرى ولا تغطيّ إلا جوانب محددة من تلك المعتقدات. إلى جانب ذلك، تباينت آراء الباحثين في تفسير العديد من الآثار المادية المكتشفة وما تحمله من أفكار عن معتقدات من خلفها مثل المدافن الجماعية المكتشفة في مقبرة اور الملكية[١٠] والأهداف الكامنة وراء بناء الزقورة بشكلها المعروف وغير ذلك من الآثار والنصوص[١١].

وعلى الرغم من تباين تفسيرات الباحثين للآثار والنصوص المسمارية المكتشفة أحيانا إلا أن هناك شبه إجماع على ان معتقدات الأقوام العراقية القديمة اتسمت بالشرك عبر تاريخها الطويل وانها لم تعرف التوحيد إلا في وقت متأخر جداً. وتوالت البحوث والدراسات وجاءت كلها مؤكدة ذلك[١٢] وغدت الصورة التي وضعت لمعتقدات الأقوام القديمة وكأنها من الحقائق المسلّم بها وبصحتها.

ومع أن الصورة تمثل أقصى ما يمكن استنتاجه من المصادر المتاحة

---

(١٠) ساكز، هاري، عظمة بابل، لندن، ١٩٦٢، ترجمة عامر سليمان، ص٤٢٧ وما بعدها.

(١١) المصدر نفسه، ص٤٠٩ وما بعدها.

(١٢) الدباغ، المصدر السابق، ص٢٤٥، ساكز، المصدر السابق، ص٣٦٧ وما بعدها، كريمر، المصدر السابق، ص١٥٠ وما بعدها.

سواء أكانت آثار مادية أو نصوص مسمارية إذا ما أخذت على ظاهرها، فإنها، في رأينا، تغفل أموراً قد تقلل من أهمية المصادر المعتمدة في رسمها وتتجاوز سلبياتها. لذا فإننا نرى أن يصار إلى إعادة تقييم هذه المصادر أولا ومن ثم اعتمادها في رسم صورة تقريبية عن نشأة المعتقدات الدينية في عصور ما قبل التاريخ وتبلورها في العصور التاريخية.

فأما مصادرنا عن عصور ما قبل التاريخ فهي بالدرجة الأساس آثار صماء وقليلة تقتصر على ما وجد في القبور من أثاث جنائزي وعلى عدد من دمى الطين وعلى المشاهد المنحوتة أو المحفورة على الأختام أو المرسومة على الفخار[١٣]، وكلها آثار لا تفصح عن معتقدات القوم وأفكارهم الدينية بل انها قد تعكس جوانب محددة لعدد من الطقوس و الشعائر الدينية التي كانت ترافق عملية الدفن أو تلك التي كانت تجري في المعابد. وواضح إن ما يستنتج من هذه الآثار الصماء قليل جداً ويعتمد على وجهة نظر الباحث والمنقب ونظرته إلى تلك الآثار. وينطبق ذلك إلى حد كبير على آثار العصور التاريخية على الرغم من كثرتها وتنوع أشكالها، فأسس المعابد وجدرانها وزقوراتها وتماثيل الآلهة والمشاهد الدينية المنحوتة أو المرسومة على اختلافها، هي الأخرى لا تعكس المعتقدات الدينية الفعلية وان أقصى ما يمكن ان يستنتج منها هو أسلوب أداء الشعائر الدينية و إتمام الطقوس. وقد تعكس أحيانا جانبا من تصورات الكهنة حول هيئة الآلهة وأشكالها المادية القريبة في ظنهم من شكل الإنسان وهيئته.

إلا أن مصدرنا الأساس الثاني عن المعتقدات الدينية في العصور التاريخية

(١٣) الدباغ، المصدر السابق، ص١٢ مثلاً.

يتمثل بالأعداد الكبيرة من النصوص المسمارية السومرية والاكدية التي تناولت بشكل مباشر أو غير مباشر جوانب من المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين. وعلى الرغم من غزارة المعلومات التي تقدمها هذه النصوص عن جوانب مختلفة من الحياة الدينية في العراق القديم ومع انها نصوص قديمة وتبدو لغير المتخصص انها معاصرة لما ورد فيها من قصص وأساطير إلا أن فيها عدد من السلبيات يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار إذا ما اعتمدت لرسم صورة عن نشأة المعتقدات الدينية. وأول تلك السلبيات ان غالبية النصوص المسمارية ذات العلاقة كانت قد دونت في وقت متأخر جداً من نشأة المعتقدات الدينية إذ ان الكتابة لم تستخدم لتدوين القصص والأساطير إلا في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد في حين كانت نشأة المعتقدات الدينية تسبق هذا التاريخ بآلاف السنين، إلى جانب ذلك، فان ما دون من نصوص دينية في الألف الثاني قبل الميلاد، أعيد استنساخه مرات عديدة من قبل الكهنة غالبا وعلى مر العصور حتى اكتسبت القصص والأساطير والتراتيل الدينية صيغاً تقليدية إلى درجة أنها غدت تستنسخ في العصور المتأخرة باللغة السومرية أحيانا على الرغم من ان اللغة السومرية كان قد بطل استخدامها لغة تخاطب وتدوين. لذلك، فان المعلومات التي تضمنتها مثل هذه النصوص لا تمثل في احسن الأحوال إلا وجهة نظر الكهنة الذين قاموا بتأليفها أول مرة ثم أعيد استنساخها مرة بعد أخرى دون تغيير جوهري يذكر باستثناء ما يطرأ على مراكز الآلهة تبعا للتغيرات السياسية، ولعل خير مثل على

ذلك ما نجده في قصة الخليقة [١٤]. إذ انها دونت في العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠-١٦٠٠ق.م) على رأي كثير من الباحثين أو بعد ذلك، أي في مدة سيطرة الكشيين على بلاد بابل، وكان بطل الآلهة في النسخة البابلية الاله مردوك، اله مدينة بابل القومي. وفي العصر الآشوري الحديث، حلّ الاله أشور، اله الآشوريين القومي، بدلا منه وغدا بطل قصة الخليقة. ومن المعروف أيضا ان وجهة نظر الكهنة كانت مرتبطة بوجهة نظر السلطة الحاكمة وبالتالي فانه من غير المتوقع ان نجد بين النصوص المسمارية آراء تخالف آراء الكهنة وتصوراتهم عن مختلف جوانب الحياة الدينية وربما كان ذلك من الأسباب التي دفعتهم إلى الإبقاء على النصوص الدينية مدونة باللغة السومرية، التي لم يكن يعرفها في العصور المتأخرة إلا عدد قليل من الكهنة، أو بلغة اكدية أدبية معقدة يصعب فهمها.

من جانب آخر، فان هناك ما يبعث على الاعتقاد بان نشأة المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين في عصور ما قبل التاريخ وتبلورها في العصور التاريخية كانت خلاف الصورة التي أشرنا إليها آنفا مما وضعه الباحثون المحدثون، وان الشرك لم يكن الأساس الذي قامت عليه تلك المعتقدات بل على العكس تماما إذ كان الشرك نتيجة طبيعية لابتعاد الإنسان عن التوحيد الفطري

---

(١٤) انظر: Langdon, S., The Babylonian Epic of Creation, London, 1923.

ساكز، المصدر السابق، ص٤٦٣ وما بعدها.

ساكز، هاري، قوة أشور، لندن، ١٩٨٤، ترجمة عامر سليمان، ص٤٠٣.

الذي وجد عليه الإنسان منذ ان خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام، أي ان معتقدات الإنسان الأولى قامت على أساس من التوحيد وليس الشرك إلا ان ابتعاده عن التوحيد وتوسّله بمختلف الظواهر والقوى الطبيعية المؤثرة في حياته وتجسيده لها ومن ثم تقديسها والتقرب إليها ابتغاء مرضاتها أو اتقاء شرّها جعل من تلك الظواهر والقوى معبودات لذاتها، أوقعت الإنسان في الشرك فغدا الشرك في العصور التاريخية من ابرز سمات المعتقدات الدينية ولم يبق من التوحيد الفطري إلا صداه وان ما يؤيد هذا الرأي عدد من الملاحظات الخاصة بمصادر معلوماتنا عن المعتقدات الدينية العراقية القديمة منها:

١- ان النصوص المسمارية السومرية والاكدية نفسها تؤكد ان عدد الآلهة كان في تزايد مستمر وانه لم يكن هناك في البدء سوى الإلهين ابسو وتيامت ثم وجدّ الآلهة الآخرون فيما بعد فجاء لخمو ولخامو ومن ثم انشار وكيشار ثم جاء انو وهكذا بدأ تكاثر عدد الآلهة على مر العصور كما تنص على ذلك مثلاً قصة الخليقة البابلية حتى غدت الآلهة الصغار تزعج ابسو وتيامت(١٥) وهذا ما تؤكده الأساطير السومرية أيضا التي تذكر انه لم يكن في البدء سوى الآلهة نمّو التي وصفت بأنها ألام التي ولدت السماء والأرض.(١٦)أي ان السومريين والبابليين أنفسهم كانوا يعتقدون، كما تعكس ذلك قصصهم الدينية

---

(١٥) باقر، طه، مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد، ١٩٨٠، ص٧٤-٧٥، لابات، رينية، المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين، ترجمة ابونا البير ووليد الجادر، ص٣٤.

(١٦) كريمر، المصدر السابق، ص٦٥.

وأساطيرهم، إن إلها واحدا أو الهين كانوا هم المسؤولين عن خلق الكون ومن ثم تكاثر عدد الآلهة.

٢- تؤكد الآثار المادية المكتشفة من عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية وفي مقدمتها النصوص المسمارية ان الاتجاه العام كان نحو تزايد عدد الآلهة المعبودة. فبعد ان كانت عبادة الإنسان في العصور المبكرة تدور حول الخصوبة والقوى المؤثرة في حياته المستقرة جوار أرضه الزراعية غدا في العصور التاريخية يجسد كل مظاهر الطبيعة وكل القوى بل وكل المعارف أو الظواهر الأخرى المؤثرة في حياة الإنسان فخصّص اله للطب مثلاً و آخر للكتابة وثالثاً للنار ورابعاً للحرب والحب والى غير ذلك كما غدا لكل مدينة إلهها الحامي ولكل مجموعة من الأقوام إلهها القومي بل تشير بعض النصوص المسمارية انه كان لكل فرد من الأفراد ألهه الحامي الذي يرافقه طوال حياته. وكان لكل اله اسم خاص وصفات محددة وربما رمز معين وقد حاول عدد من الباحثين منذ مطلع القرن العشرين جمع أسماء الآلهة كما وردت في النصوص المسمارية المكتشفة حتى حينئذ فتبين بأنها كثيرة جداً وضمها مجلد ضخم، وهذا يعني ان الاتجاه العام هو نحو تزايد عدد الآلهة والابتعاد على مر العصور عن التوحيد وليس العكس.

٣- على الرغم مما وصلت إليه المعتقدات الدينية في العصور المتأخرة نسبيا، أي في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، من ابتعاد عن التوحيد واعتراف بعدد كبير من الآلهة وتزايد هذا العدد المستمر، إلا انه كان هناك وفي جميع العصور التاريخية القديمة المعروفة لدينا ما يعرف بمبدأ التفضيل أو التفريد

Henothesim أي إفراد أحد الآلهة وتفضيله على غيره في العبادة والتقديس وكان يعد أبو الآلهة جميعاً أو رئيسها أو بطلها، وهذا ما ينطبق على الإله آنو، اله السماء، والآلهة انليل، الإله القومي للسومريين، والإله مردوك، اله البابليين والإله أشور، اله بلاد أشور القومي وهكذا[١٧]. ويبدو لنا ان هذا الاعتقاد بأفضلية أحد الإلهة وتميزه على غيره من الآلهة إنما هو صدى التوحيد الذي كان عليه الإنسان في عصوره المبكرة والأساس الذي نبعت منه المعتقدات الدينية في العصور التالية.

٤- إن غياب الأدلة المادية التي تشير إلى أن الإنسان كان يؤمن بالتوحيد في حياته الأولى ومن ثم ابتعد عنه تدريجياً، كالدمى والتماثيل والمشاهد المنحوتة، لا يمكن ان يفسّر بعدم إيمان الإنسان بالتوحيد، فالتوحيد الخالص لا يحتاج إلى دمى وتماثيل ومنحوتات لأداء طقوس العبادة بل إننا نلحظ تزايد استخدام التماثيل والنصب التي تقرّب إلى عبادة الإله الواحد في ظن الإنسان كانت في تزايد مستمر كلما ابتعدنا عن التوحيد.

٥- وما يقال عن الآثار المادية التي تشير إلى التوحيد ينطبق على النصوص المسمارية. فغياب النصوص المسمارية التي تعبّر عن التوحيد أو تتحدث عنه بشكل مباشر أو غير مباشر لا يمكن أن يفسر انه دليل على عدم معرفة الإنسان به، فجميع النصوص المسمارية السومرية والاكدية ذات العلاقة بالمعتقدات الدينية والتي عثر عليها حتى الآن وتمت قراءتها وترجمتها تتضمن تأليف الكهنة واستنساخاتهم للقصص والأساطير الدينية التي نظمها

(١٧) باقر، طه، المقدمة، مصدر سابق، ط٢، ج١، ص٢٢٧.

الكهنة أنفسهم على اختلاف معبوداتهم والتي كانت بالطبع تتفق مع الخط العام الذي تسير عليه السلطة الحاكمة وقت تدوين أو استنساخ تلك النصوص وتنسجم والمعتقدات الرسمية السائدة. وبعبارة أخرى، يمكن القول ان النصوص المسمارية الدينية تمثل نصوصاً رسمية وتعكس معتقدات رسمية أيضا وانه من غير المتوقع أو المحتمل أن نجد بينها نصوصاً تتقاطع أو تتعارض مع أفكار ومعتقدات الكهنة أنفسهم الذين كانوا مرتبطين بالسلطة الحاكمة، ولمّا كان التوحيد يتقاطع أساسا مع المعتقدات الدينية السائدة وقت تدوين النصوص المسمارية في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، فليس من المتوقع ان نجد ما يشير إليه بين تلك النصوص: من جانب آخر، تشير الأدلة المتوفرة ان الخروج عن المعتقدات الدينية السائدة أو امتهان أحد الآلهة أو تدنيس معابدها كان يعد من الأعمال التي تؤدي بحياة من يقوم بذلك حتى إذا كان ملكا حاكما. إن نهاية نرام سين ونهاية مدينة أكد نسبت، كما تذكر النصوص المسمارية، إلى غضب الإله انليل لان نرام سين سمح لقواته أن تنتهك معبده الرئيس في نيبور فجلب الإله انليل الغاضب أقواما بربرية من المنطقة الجبلية،وهم الكوتييون، قضت على بلاد أكد ودمّرت كل شيء فيها[١٨]. كما تفيد القصص الدينية المعروفة من مصادر أخرى غير النصوص المسمارية إن الخروج عن المعتقدات الدينية السائدة والدعوة إلى التوحيد مثلا، وهذا ما تعبّر عنه كثير من النصوص المسمارية وبخاصة نصوص الفأل والتنبؤ التي تذكر إحداها ان هلاك نرام سين ، حفيد سرجون

(١٨) ساكز، عظمة بابل، ص٧١.

الاكدي إنما كان نتيجة تطاوله على الآلهة وتأليهه نفسه[١٩]، كان يعد جريمة كبرى تستحق اشد العقاب وهذا ما حدث للنبي إبراهيم الخليل عليه السلام عندما نادى بعبادة اله واحد ونبذ عبادة الآلهة الأخرى. ويرى الباحثون إن إبراهيم عليه السلام عاش في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وكان جزاؤه القتل حرقاً بالنار، وهي عقوبة خصها القانون البابلي القديم للجرائم الكبرى التي تهدد كيان المجتمع. لذلك فانه ليس بين النصوص المسمارية ذات العلاقة نصوصاً تعبّر عن وجهات نظر الأفراد الاعتياديين من غير الكهنة مؤيدة كانت لوجهات نظر الكهنة أم معارضة، بل إن جميع النصوص الدينية المكتشفة خلت من اسم مؤلفها أو جامعها على غرار غيرها من النصوص الرسمية التي كانت تصدر عن القصر أو المعبد وتعبر عن وجهات النظر الرسمية.

٦- انه من الممكن للباحث أن يتلمس عدد من الأفكار والمعتقدات التي وردت بين اسطر النصوص المسمارية مغلفة برداء الشرك والتشبيه إلا انها، مع ذلك، تعكس أفكارا ومعتقدات توحيدية جاءت بها الرسالات السماوية ولا يمكن تفسير ذلك إلا أنها كانت هي الأخرى أفكار ومعتقدات جاء بها الرسل والأنبياء السابقين ممن ذكرت أسماؤهم في الكتب السماوية أو لم تذكر، وكان من بينهم النبي نوح والنبي إبراهيم وغيرهم والذين نظن انهم عاشوا مددا معينة من حياتهم في بلاد الرافدين. ومن بين ذلك الاعتقاد بخلق الإنسان من

(١٩) طه باقر، المقدمة، ص٢٦٩.

طين وبقدسية الماء وبحدوث الطوفان لمعاقبة الإنسان على خروجه عن جادة الصواب وغير ذلك كثير.

نخلص من ذلك ان الآثار المادية المكتشفة والنصوص المسمارية التي تمت قراءتها إنما تؤكد ان معتقدات الإنسان قامت على التوحيد الفطري ثم بدأ الابتعاد التدريجي عن التوحيد حتى غدا الشرك من ابرز سمات المعتقدات الدينية في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد وكان ذلك مدعاة لبعث الرسل والأنبياء لتذكير الناس وإنذارهم و إعادتهم إلى التوحيد وكان من بين اقدم الأنبياء الذين بعثوا والذين نعرف عنهم معلومات وافية النبي نوح عليه السلام الذي نظن انه عاش في بلاد الرافدين في وقت ما في عصور ما قبل التاريخ إلا أن حادثة الطوفان التي حدثت في عهده دونت بعد آلاف السنين فدخلت عليها إضافات كثيرة وتفصيلات وحذف منها ما حذف حتى جاءت قصة الطوفان مغلفة بلباس من الشرك والتشبيه، شأنها في ذلك شأن القصص الدينية الأخرى، مع ذلك، ظلت تحتفظ بالخطوط الرئيسية التي كانت عليها حادثة الطوفان كما نعرفها من القرآن الكريم[٢٠].

(٢٠) انظر: سليمان، عامر، من القرآن الكريم إلي النصوص المسمارية، مجلة المجمع العلمي/ مجلد ١/٤٥، ١٩٩٨، ص٣٦-٦٠.